13. الفصل الثاني عشر

أبرز القادة في عصر الدولة الأيوبية

ملخص العصر الأيوبي :

أول من تولي الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلي أن توفي سنة 1192 م ثم تولي حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلي أن توفي سنة 1198 م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدي إلي سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلي أن تم حسم الموقف تماماً وتولي الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة 1200 م إلي سنة 1218 م وهو أخو صلاح الدين وتولي الحكم لمدة 19 سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلي أن توفي سنة 1238 م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بناءها صلاح الدين[282] وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة 1240 م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة 1249 م وجاء بعده الملك توران شاه ابنه الذي تولي حكم مصر لمدة شهرين فقط إلي أن قتله مماليك أبيه ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يوماً وبهذا انتهت الدولة الأيوبية علي يد المماليك[283] وأشهر ملوك بني أيوب هم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح ، وكان الصليبيون هم قدر الدولة الأيوبية منذ نشأتها وحتي آخر يوم في تاريخها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخري وكأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصاً لهذا الغرض وأكبر دليل علي ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من مصر (فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء علي الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول -)[284]

وكان ملوك بني أيوب يفضلون السلام مع الصليبيين ويعتبرون أن الجهود الدبلوماسية قد توقف كل هذه الحروب الدامية ويحاولون تجنبها ولكن للأسف الشديد كان الصليبيون لا يكفون عن مهاجمتهم مما اضطرهم إلي الوقوف أمام هذه الحملات بقوة وشجاعة (- ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر في مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلي مسالمة الصليبيين وإلي اصطناع السياسة في علاقتهم معهم كلما أمكن ذلك - - ومع أنهم نجحوا في هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعي الذي انتهي بها إلي تحول الاتجاه عن الشام إلي مصر -)[285]

---

[282] جدير بالذكر أن كل من حكم مصر بعد ذلك سكن القلعة حتى عهد الخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي والذي نزل من القلعة وأقام بقصر عابدين واتخذه مقراً له

[283] تم كتابة أسماء ملوك الدولة الأيوبية من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري صفحة 89 ، صفحة 90

[284] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 78

[285] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 78

وبدأت فكرة الغزو الصليبي للأمة الإسلاميةْ في شهر نوفمبر سنة 1095 م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني[286] وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (– وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)[287] ، وهذه كانت الحملة الصليبية الأولي

ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية بعد أن استطاع عماد الدين زنكي تحرير مملكة الرها من الصليبيين ، ثم جاءت الحملة الثالثة التي قامت باحتلال عكا ومدن الساحل بعد أن تم تحرير بيت المقدس علي يد الملك الناصر صلاح الدين وانتهت بتوقيع معاهدة مع ريتشارد قلب الأسد وعاد إلي بلاده ، وبعد هذه الحملات كانت الحملة الرابعة بعد موت صلاح الدين والتي كانت بسبب البابا أنوسنت الثالث ولكنها باءت بالفشل حيث تم تحويلها عن اتجاهها الرئيسي إلي القسطنطينية والطريف أن هناك حملة أخري اسمها حملة الأطفال قام بها (– صبي من الرعاة وادعي أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس – – – وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلي الثغور الإسلامية وباعوهم في الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق –)288 وبعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بريين ثم الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وأخيراً الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع والتي كانت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه وانتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وتم أسر ملكهم لويس التاسع كما نعرف جميعاً وتم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وبالتالي فإن كل هذه الحملات جاءت في عهد الدولة الأيوبية عدا الحملتين الأولي والثانية فقط بالإضافة إلي حملات صغيرة لم يتم ذكرها لصغرها ، وكان من نصيب الدولة الأيوبية أن تواجه كل هذه الحملات الشرسة وعلي الرغم من محاولات تجنب هذه الحروب إلا أنها لم تتوقف طوال فترة حكم الدولة الأيوبية وانتهت تقريباً بانتهاء الدولة الأيوبية

والجدير بالذكر أنه لم تقم في مصر ثورة واحدة طول عصر الدولة الأيوبية[289] مما يؤكد اهتمام الأيوبيين بتوفير الرخاء والازدهار للشعب المصري[290] علي الرغم من كثرة حروبهم مع الصليبيين طوال فترة قيام دولتهم ، كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس ونشر العلم وازدهرت الحركة الدينية والأدبية والأبحاث العلمية وبرز في مصر

---

[286] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 159

[287] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 159

[288] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 80

[289] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 219

[290] حدثت مجاعة واحدة في العصر الأيوبي بسبب نقص شديد في مياه النيل وكانت في عهد السلطان العادل وتبع ذلك غلاء ووباء

علماء في الرياضيات والطب وغيره من العلوم واهتم ملوك بني أيوب بإنشاء المكتبات العديدة واعتنوا بها عناية شديدة وهناك العديد من الأمثلة التي تدل علي مدي التقدم العلمي في مصر أيام الأيوبيين فمثلاً (- في بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثاني مشكلة علمية فكان يبعث إلي أصدقائه من ملوك المسلمين ويطلب أن يعرضوها علي من لديهم من علماء للإجابة عليها وعلي سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلي الملك الكامل حلها العالم الرياضي المصري قيصر الأصفونى فإنه كان المشار إليه في ذلك -)[291]

وعن مكانة المدرس في العصر الأيوبي وتحت عنوان المدارس في العصر الأيوبي كتبت الأستاذة الدكتورة عفاف سيد محمد صبره أستاذ التاريخ الوسيط كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر – فرع البنات ، كتبت ما ملخصه : (احتل سلاطين الأيوبيين مكانة بارزة بين الحكام المسلمين في الاهتمام بالعلم والتعليم ، حتي أصبح لهذا العصر سمة خاصة ميزته عن غيره من العصور الإسلامية الأخري ، فقد شهد نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية ، ولا أدل علي ذلك من النتاج العلمي والمؤلفات الكبيرة التي تذخر بها المكتبات الإسلامية إلي جانب الشخصيات البارزة التي تألقت ونالت حظها في ميدان الفكر والدين والسياسة - - - وبلغ من سمو ومكانة التدريس في مصر أنه كان يصدر بها تقليد أو مرسوم من السلاطين ، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة ، وكثيراً ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معاً ، - - -وكانت المرتبات التي تمنح للمدرسين إما نقداً وإما عيناً كما تأثرت بظروف متعددة منها مقدار الوقف علي المدرسة ومكانة المدرس وسمعته ، وقد كان هناك مدرسون يتناولون مرتباتهم المنتظمة من الخزينة العامة للبلاد ، هناك مثل للمرتب الذي منحه صلاح الدين للشيخ نجم الدين الخبوشاني عندما عينه علي التدريس والنظر في المدرسة الصلاحية فقد أورد السيوطي "أن صلاح الدين شرط له من المعلوم في كل شهر أربعين دينار معاملة ، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم عن التدريس" ، وقد بني صلاح الدين مدرسة أخري سماها السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً وباقي ريع الوقف يصرفه علي ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده علي قدر طبقاتهم[292]

ومما سبق يتضح أن ملوك الدولة الأيوبية لم تشغلهم الحروب عن أحوال الشعب ورفاهيته وتعليمه وسوف نتناول في هذا الفصل إن شاء الله أبرز القادة في عصر الدولة الأيوبية

---

[291] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 225

[292] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 2000

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي :

ذكرنا أن صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني كان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي ، والذي في نفس الوقت أصبح وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات

فماذا كان يريد أن يحققه صلاح الدين وما الفرق بينه وبين نور الدين محمود ؟ علي العموم كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف ، لأن نور الدين محمود كان يري أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة انطلاق ضد الصليبيين293 كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء علي الحملات الصليبية والله أعلم لأنه نظر إليها النظرة التي نتحدث عنها من البداية والتي هي جديرة بها ، وقدر لها قدرها وعرف إمكانياتها وثقلها وفضلها والله أعلم ، ، كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنباً إلي جنب بجوار القوة فرأي أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، فوجد أن أفضل اسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير علي منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله

وأصر نور الدين محمود علي أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضئ دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع صلاح الدين مخالفة أوامر نور الدين محمود رغم إحساسه بمدي خطورة إلغاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يري أن نشر المذهب السني أولاً في مصر والدعوة إليه وتقويته هو السبيل إلي سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهراً ، علي أي حال نفذ أوامر نور الدين محمود وألغي الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضئ بأمر الله علي المنابر ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة علي المذهب الشافعي294 وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساساً علي ما يبدو ، وكان الخليفة العاضد مريضاً مرضاً شديداً حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك ، ومات أيضاً نور الدين محمود295 ويخلفه ابنه الذي لا يتعدي عمره (11) سنة296 وأصبح هذا الطفل مطمعاً للقادة والأمراء الذين حوله (- ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط

---

[293] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 193

[294] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 192

[295] وسبحان الحي الذي لا يموت

[296] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 195

صلاح الدين –)297 وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل علي العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين

من هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لاغتياله غدراً في مقره ، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (– فظهر في ذي الحجة 569هـ " يوليو 1174م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء ، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله علي أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام –)298 ، كما حاول أيضاً الفاطميون إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل ، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلي وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخري

واستطاع صلاح الدين أن يقضي علي جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذاً بأسباب القوة وكان ينجوا بأعجوبة من محاولات قتله غدراً[299] وبعد أن استقرت له مصر تماماً قرر أن يخوض حرباً ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحياناً ولا يجد مقاومة تذكر أحياناً أخري وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بعجلة القيادة في الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين وكسر شوكتهم ، وليس معني هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفي بحروب دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولاً ، ثم التفرغ التام لهم ووراءه أمة قوية آخذه بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوية بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات ، وكان حول صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتورانشاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف علي بناء السور الذي أمر ببناءه صلاح الدين ، وطبعاً كان قراقوش رجلاً مهاباً يُضرب بحسمه المثل إلي الآن ، وبالإضافة إلي كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم

(– وتوالت انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته –)300 (– ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار بارونات الصلح من صلاح الدين في مايو 1180م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين –)301 ولكن كان هناك

---

[297] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 195

[298] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 196

[299] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 196

[300] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 199

[301] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 199

شخص متطرف جداً اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين (– ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز يوضح لنا مدي الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنماً مما أرادوه –)302 وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط (– انقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلاً " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد –)303 (– وخرج علي رأس جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من " صفورية " (– وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة 1187 م –)304 ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة ، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (– فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجرأ علي الأنبياء –)305 واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (– في 27 رجب سنة583 هـ "2أكتوبر 1187م" – – ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضاً تماماً لما فعله الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس سنة 491 هـ "1097م" قتلوا به أكثر من سبعين ألفاً)306 وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي 90 سنة

وبالطبع غضب ملوك أوروبا غضباً شديداً بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين ، وخاصة موقف تحرير بيت المقدس فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم307 ثم أوقع المولي عز وجل الخلاف بين قادة هذه الحملة وانتهي الأمر إلي قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلي نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح

---

[302] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 200

[303] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 201

[304] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 201

[305] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 202

[306] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 203

[307] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 204

الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلي بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصاً علي مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية ، فعاد ريتشارد إلي بلاده مطمئناً في 9 أكتوبر سنة 1192م308

ومات صلاح الدين الأيوبي (في 27 صفر سنة 589 هـ " أوائل مارس سنة 1193م" – – مخلفاً وراءه دولة متحدة الأركان – – وقد قال المؤرخ السيوطي في صلاح الدين " فرحمة الله عليه في سائر الأوقات فلقد كان إماماً عادلاً وسلطاناً كاملاً لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده –)[309] ، وإليك بعض مقتطفات من قصيدة كتبها أسامة بن منقذ في صلاح الدين[310]

ملك يمن علي أساري سبيه – – – فيعيدهم في الأسر بالإحسان

ملأ القلوب محبة ومهابة – – – فخلت من البغضاء والشنآن

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت – – – عنه الملوك ومظهر الإيمان

بك قد أعز الله حزب جنوده – – – وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم – – – الشيطان بالإلحاد والعصيان

جردت سيفك في العدا لا رغبة – – – في الملك بل في طاعة الرحمن

وغضبت لله الذي أعطاك فضل – – – الحكم غضبة ثائر حران

كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها[311] :

بالله أين الناصر الملك الذي – – – لله خالصة صفت نياته

أين الذي مازال سلطانا لنا – – – يُرجي نداه وتُتقي سطواته

لا تحسبوه ممات شخص واحد – – – فممات كل العالمين مماته

دفن السماح فليس ينبش بعدما – – – أودي إلي يوم النشور رفاته

من لليتامي والأرامل راحم – – – متعطف مفضوضة صدفاته

---

[308] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 205

[309] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 206 (نقلاً عن السيوطي)

[310] صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صحفة 80 ، 81

[311] صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد 25 من كتاب الشعب سنة 1958 صفحة 105

الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :

عندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل كان محباً للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محباً للسلام أيضاً وقررا العيش في سلام (– – وكان كلاً منهما لا يلجأ إلي السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال : كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلي الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل – –)312

ومن هنا كانت الحملة الغريبة والطريفة جداً والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وفيما يلي بنود المعاهدة كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديداً في صفحة (90)

(1) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصوناً أو قلاعاً

(2) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلي يافا علي الساحل

(3) أن يبقي في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى علي ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحاً

(4) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري

(5) أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين

(6) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلي الإمارتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس

(7) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

وبالطبع غضب بعض المسلمون من الملك الكامل لتوقيعه هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضاً المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين علي كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلي أماكنهم المقدسة313

وعندما تولي الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة 1244 م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلي الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخري في أيدي المسلمين إلي قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والطريف أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين علي الكنيسة (– ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلي توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم الدين فأرسل فردريك في السر رسولاً يحمل إلي الصالح أنباء

---

[312] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 89

[313] نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني

خروج حملة لويس في طريقها إلي مصر –)314 وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلي بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولاً فيصبح بذلك الطريق سهلاً إلي تحقيق الهدف الرئيس من الحملة

الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة :

كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط ، واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها ، فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضاً مرضاً شديداً وعندما وصلت السفن الفرنسية (– أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلي السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلي دمياط ثم تركها وسار جنوباً – – – ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتي لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم – –)315 ، أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل ودخل الجيش الفرنسي المدينة بلا مقاومة وبلا أدني مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر لأنها كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به ، ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة ، فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهي الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح ، ورغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حامية دمياط إلا أن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعة لقتال الصليبيين وقام بتحصينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الصليبيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسري316 ، وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة 647 هـ " 22 نوفمبر سنة 1249 م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين ، وكانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته ، (– وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح –)317

واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء ، ثم بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع ، فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها

---

[314] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 94

[315] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 97

[316] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 98

[317] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج 2 صفحة 98

فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر318 فرفض تورانشاه ، واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعداداً ضخمة منهم ، ووقع في الأسر الملك لويس التاسع الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح

وكان نصراً عظيماً بفضل الله سبحانه وتعالي ، ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام

والطريف أن أحد الشعراء في مصر في ذلك الوقت اسمه جمال الدين بن مطروح319 ودع جنود فرنسا المنسحبين وأشار إلي أن دار ابن لقمان ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخري فقال الشاعر :

قل للفرنسيس إذا جئته – – – مقال نصح عن قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها – – – تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلي أدهم – – – ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم – – – بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يري منهم – – – إلا قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة – – – لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان علي حالها – – – والقيد باق والطواشي صبيح

والجدير بالذكر أن الملك الصالح كان يعتمد علي المماليك في هذه المعركة الذين أكثر من شرائهم ليستعين بهم علي حروبه وكان يعاملهم معاملة خاصة لاسيما الأمراء منهم والقادة ولكن ابنه توران شاه علي ما يبدو وكما تشير المراجع التاريخية كان يتعامل مع مماليك أبيه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر علي الحملة الصليبية السابعة مما أدي إلي شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منهم والله أعلم (– ولم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة بل كان شاباً أهوج فلم يقدر لزوجة أبيه شجرة الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم –)[320] وبعد أن تم قتل توران شاه قام المماليك بتكليف شجرة الدر بإدارة شئون البلاد وتزوجت أحد قادة المماليك ثم قامت بعد ذلك دولة المماليك في مصر

---

[318] كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تماماً أثناء قيامهم بمهامهم وهو عُرف قديم ومعروف

[319] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني 102

[320] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة 101